الكتاب الرابع

«تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»

تأليف: الأستاذ عبد المنعم السيد العشرى **عرض: أ. د. كارم السيد غنيم**

كتاب «**تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم**» لمؤلفه الأستاذ **عبد المنعم السيد عشرى**، ظهرت طبعته الأولى فى مصر وقامت بنشره الهيئة المصرية العامة للكتاب خلال (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، وهو يقع فى (٣٢١ صفحة) من القطع الكبير، ويضم مقدمة قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير صاحبها). ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع فقط، وانتهى الكتاب بفهرس للموضوعات، كذلك احتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية و ١٢ شكلاً توضيحيًا. وجاءت فصول الكتاب بالعناوين التالية: **الآيات الكونية فى القرآن الكريم، الأرض، السحاب، المطر، النبات، الحيوان، الإنسان، والسماء**. وكان أقصر فصول الكتاب الفصل الأول، وأطولها الفصل السادس. والمؤلف من الذين مارسوا تدريس علم الفيزياء فى الكليات والمعاهد العلمية قرابة أربعين عامًا، وله كتاب صدر قبل الذى نحن بصدده الآن، هو «**الكواكب والنجوم والمجرات**» قامت بنشره نفس الدار. ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على المعاش لإخراج الكتاب الحالى، والذى جاء ثمرة لتخصصه العلمى وحميته الإسلامية، فذلك واضح من مقدمة الكتاب التى لا تتعدى الصفحتين، بيَّن فيها المؤلف الدوافع التى دفعته إلى تأليف هذا الكتاب والهدف الذى ينشده من ورائه. أما الدوافع فإيمانية نمت يومًا بعد يوم خلال عمله التخصصى، وأما هدفه فهو السعى إلى

(إظهار أن كل ما فى الوجود من أصغره إلى أكبره . . من الإليكترون إلى المجرة . . من الفيروس إلى الإنسان . . كل هذه المخلوقات من أدقها إلى أعظمها دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين . **وبهذا يلتقى العلم والقرآن . . .**)، ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة فى تناول مسائل الكتاب حيث تعهد بتبسيط المعلومات، والمعارف الكونية؛ كى يستطيع القارئ استيعابها، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التى تشير إلى تلك المسائل، ويسوق شروح المفسرين لها. ملتزمًا بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذى وردت فيه، وهذا دفعه إلى ربط الآيات محل الدراسة بالآيات التى قبلها مباشرة.

جاءت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) فى حوالى عشرين صفحة عن «**الآيات الكونية فى القرآن الكريم**». وتضمنت العرض عناوين جانبية هى: استخلاف الله الإنسان على الأرض ـ الجزاء على قدر العمل ـ دين الفطرة ـ الحقائق الكونية والعلمية فى الآيات القرآنية ـ القرآن ـ منزلة العلم فى القرآن الكريم ـ العلم ووسائل تحصيله ـ الإنسان مستصلح للدارين. وقبل أن نبين مضمون هذا الفصل نلاحظ أن كثرة العناوين الجانبية تفتت الموضوع، وتضعف من الترابط الفكرى له. وقد تناول هذا الفصل الآيات التالية:

(١) فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة: ٣٠، ٣١).

تكلم المؤلف فى شرح هاتين الآيتين مستمدًا ذلك من تفاسير مشهورة، ثم استخلص أن الله ـ تعالى ـ علم آدم الأجناس التى خلقها، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوا فى موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق مستخلفًا فى الأرض. وتدل الآيتان أيضًا على فضل العلم؛ إذ لو كان هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به، فالعلم هو القوة التى تحقق للإنسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض، ولا يخفى على أحد ضرورته فى كل مناحى الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها.

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف فى الأرض، فإن الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية، فإن الإنسان لا تكتمل لشخصيته الإنسانية ذاتيتها المستقلة إلا بقدر ما يتصارع فى نفسه من نوازع الخير والشر، وبقدر ما يعانيه من التجارب والمقاساة، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة. جاء الناموس الإلهى، وهو استخلاف الإنسان فى الأرض، ومعه ناموس إعطاء الجزاء على قدر العمل، وهو أساسًا فى الآخرة، إلا أن الله يظهره ولو جزئيًا فى الدنيا.

أما كون الدين الإسلامى هو دين الفطرة، فالفطرة أولاً ليست عقلاً صرفًا ولا عاطفة محضًا، بل هى مزيج منهما، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر، وهنا تكون الفطرة سليمة، تنشد الله وتعرف سبيلها إليه: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** (الروم: ٣٠).

عن الحقائق الكونية والعلمية فى القرآن، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التى تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على بارئه ومصوره، وإظهارًا لعظمته وقدرته، وتبيانًا لرحمته بخلائقه.. وحثًا على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها، واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الإنسان بالخير. ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المفاهيم أورد المؤلف الآيات: (الأنبياء ـ ٣٠ ـ ٣٣، السجدة ٤ ـ ٩، القمر ٤٩، الحجر ١٩ ـ ٢٢، فصلت ٩ ـ ١٢، البقرة ١٦٤، الرعد ٢ـ٤، فاطر ٢٧ ـ ٢٨، يس ٣٧ ـ ٤٠، القصص ٧٢ ـ ٧٣، الروم ١٧ ـ ٢٧، الفرقان ٥٣ ـ ٥٤، الأنعام ٩٩، يس ٧٨ ـ ٨٠، الواقعة ٥٨ ـ ٦٠، الواقعة ٦٨ ـ ٧٠، الواقعة ٧١ ـ ٧٤، الطارق ٥ ـ ٨).

بعد ذلك يعود المؤلف **ليتكلم عن القرآن، تعريفه ومحتواه وعظمته**، وفى معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط فى أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها، ودلل عليها ونبه الأذهان إليها، واستدل على ذلك بالآيات: (النحل ٨٩، الأنعام ٣٨، الروم ٥٨ ـ ٥٩، الأعراف ٥٢، العنكبوت ٤٩). بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان **منزلة العلم فى القرآن الكريم**، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله، وهى المذكورة فى

الآية القرآنية ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨). إذًا فحواس الإنسان هى أجهزة العلم والتعلم وتدبر أمور الدنيا وكشف خباياها. وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح فى لغة العلم الحديث. ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استعانت به أجهزة علمية حديثة.

الفصل الثانى (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض، واستغرق اثنتين وثلاثين صفحة، بدأه المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض، فلما انتهى منها اتجه إلى إيراد بعض الآيات القرآنية التى تتعلق بالموضوع، وساق شيئًا من تفسيرها مقتبسًا إياه من بعض كتب التفسير التى ذكرها فى نهاية الكتاب.

ما أهمية الأرض بالنسبة للإنسان؟ أو بمعنى آخر: ما هى أوجه انتفاع الإنسان بالأرض ومكوناتها فى حياته الدنيا؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال هى صدر الفصل، حيث أكد المؤلف على ما هو معلوم بالبديهة من أن الأرض هى مقرّنا الذى نعيش فيه والذى ارتبطت به حياتنا. كيف ذلك؟ لأن من هوائها نتنفس نحن وسائر الأحياء، ومن مائها الذى يجرى فى أنهارها وبحيراتها وينابيعها نشرب ونسقى الحيوان والنبات، ومن زرعها... ومن بحارها... ومن باطنها... وفى دروبها.

يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هى: شرح ضرورة وجود جو الأرض بهذه الصفات الطبيعية والكيميائية التى حددها له الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ، وبعض العمليات المختلفة التى عمادها غاز الأكسجين. أولى هذه العمليات الحيوية التنفس، ما هو المقصود بالتنفس، وما أهميته بالنسبة لأى كائن حى، وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات؟ بعد هذه الإجابات انتقل إلى عملية الاحتراق: ما هو المقصود بالاحتراق؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض؟ ما هى الأركان الثلاثة التى يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحتراق؟ وما أهم المواد القابلة للاحتراق، وكيف نستخرجها من باطن الأرض؟ ثانى الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء: ما أوجه ضرورة الماء؟ ليس فقط للكائنات الحية، بل كذلك للعمليات غير الحيوية المتعددة والتى تتم فى كوكبنا الأرضى؟ ثالث هذه الأمور هو التربة: ما هو وجه الضرورة فى وجود تربة تغطى سطح الأرض؟ وما أهم مكوناتها؟ وما دخل ذلك فى نمو النباتات؟

ثم توسع المؤلف قليلاً فى مسألة النبات؛ فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية فى عملية نمو النباتات، ثم اتجاه الإنسان إلى التفكير فى استخدام «الأسمدة» مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتنتج له إنتاجًا زراعيًا أكثر وفرة.

الأمر أو المسألة الرابعة التى حاول مؤلفنا عرضها مؤثرًا تبسيط الكلام فيها هى اتخاذ الأرض مصدرًا لبناء دور السكنى، وفى معرض حديثه تناول الإشارة إلى الطريقة العلمية فى تكوين الأحجار الجيرية المستخدمة فى بناء الدور. ثم بين أهمية ملح الطعام للإنسان وفى عدد من الصناعات. وبعده قفز إلى الحديث عن بعض الفلزات التى يستخرجها الإنسان من الأرض وهى مهمة وضرورية فى حياته، ومنها الحديد والنحاس والألمونيوم والذهب والفضة.

أما عن النصوص القرآنية التى وردت فى الفصل الحالى. فهى اثنا عشر نصًا، بدأه صاحب الكتاب بقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف: ٥٤). وأوضح المؤلف الحكمة من ذكر لفظة «ربكم» فى صدر الآية، ثم قال فى معنى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام: أى: فى ستة أطوار مرت على الخليقة يعلمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ويجب أن نقف ـ أى نمسك ـ عن تحديدها، فإنها لم تحدد بأخبار صحيحة، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة فى هذه الآية من جنس أيامنا، فإن هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض، ولا بد أن تكون من أيام الله التى يعلمها هو. فقد أبان الله ـ تعالى ـ عن يوم فى الآية (٤) من سورة «المعارج» بخمسين ألف سنة، وأبان عنه فى الآية (٤٧) من سورة «الحج» بألف سنة من أيامنا نحن. ثم أبان المؤلف عن الحكمة فى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وهو القادر على خلقهما فى لحظة واحدة بالأمر «كن» فتكونان ثم فصل معنى الاستواء فى قوله الله ـ تعالى ـ «**ثم استوى على العرش**» وإنه عمومًا يقصد به استقامة أمر السماوات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف فى شئونهما. ثم تكلم عن تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الإلهى ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ (الأعراف: ٥٤)، وعالج الأمر من الناحية الفلكية. ورجع ليكرر

مقصود الاستواء على العرش، وذلك فى النص الذى يقول الله فيه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ (فصلت: ٩، ١٠). وخلال استرساله فى شرح هاتين الآيتين يقول: ثم إنه ـ تعالى ـ لما أخبر عن كونه خالقًا للأرض فى يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ (فصلت: ١٠).

أما النص الثالث فيوضح أن المقصود بقول الله فيه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ (الحديد: ٤) هو ﴿مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ من معادن وعناصر وخامات وخلافه، وكذلك البذور، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع، والمعادن المختلفة، ومختلف المواد الجامدة والسائلة التى يستخرجها الإنسان من داخل الأرض. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر، و﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من أبخرة. أما المعية فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤) فالمقصود بها معية القدرة والإيجاد والتكوين والتصريف والتدبير.

وفى معالجته للنص الكريم من قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الحديد: ٦) يوضح أن المقصود بالإيلاج هنا هو جعل قصر الليل فى طول النهار وطول الليل فى قصر النهار، وهذا حادث فى الفصول المختلفة من الشتاء والصيف، ويختلف حسب خطوط العرض فى الفصل الواحد.

وبعد ذلك يقول المؤلف: «.. إن هذا القرآن الذى أنزل على محمد لا شك أنه من عند الله، فما هو بشعر شاعر، ولا سجع كاهن، ولا هو مما اختلقه محمد ﷺ.

فى النص الخامس عدَّد المؤلف ١٥ مظهرًا من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة فى الخلق والتدبير والتصريف فى الكون منها: (١) قوله ـ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ

﴿الأَرْضَ﴾ أى: بسطها، فهى فيما ترى العين مبسوطة، ولا شك أن الأرض كرة، ولكن نظرًا لكبرها فإن أى جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحًا مبسوطًا. أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها، كمركبة فضاء، لظهرت أنها كروية. والمقصود من قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ (الرعد: ٣) أى: جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام، وتمهد الطرق وتمد عليها خطوط السكك الحديدية، وتقام المبانى وتسير المركبات... ثم أورد كلامًا عن الجبال الرواسى، وفى نهايته يلخص القول: «... فالجبال إذًا مثبتات للقشرة الأرضية، فلولاها لاضطربت الأرض اضطرابًا عظيمًا وزلزلت زلزالاً شديدًا، فكأن الجبال حافظة لما تحتها مانعة له من الاضطراب والزلزال والثوران». ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار فى الأرض، وأشار إشارة لطيفة، فقال: وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسى؛ لأنها تنشأ منها، فالسحاب عندما يرتطم بقمم الجبال يبرد وتتجمع القطيرات الرفيعة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطرًا مدرارًا كما يحدث عند جبال الحبشة التى ينبع عندها النيل الأزرق مكونًا أحد روافد نهر النيل. وحاول المؤلف أن يعالج عملية الإخصاب فى النبات عند تناوله للجزء من الآية: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد: ٣).

فى صدر كلامه عن النص السابع (الحجر ١٩ ـ ٢٠) يقول الكاتب: سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيهما المولى ـ عز وجل ـ دلائل سماوية فى تقرير التوحيد، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (الحجر ١٦ ـ ١٧) ثم أتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية، فقال: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (الحجر ١٩ ـ ٢٠).

وفى النص العاشر (فاطر: ٤١) تكلم الكاتب عن إمساك السماوات والأرض فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ ويشرح ناموس الجاذبية وبيان معناها، وبعضًا من أطراف المسألة.

فى النص قبل الأخير (النحل: ١٥) يبين أن النعم المذكورة هنا والتى يمتن الله بها على خلقه هى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾، و«أنهارًا»، و«سبلاً». أما فى النص الأخير (النازعات: ٣٠ ـ ٣٣) فيكرر ما سبق أن أشار إليه فى عرض النصوص السابقة.

وفصل كهذا يحتاج إلى صور أو أشكال توضح بعض مسائله وتزيد الموضوع بيانًا، فهو زاخر بالجبال، ملىء بالأنهار، غنى بالأزواج، . . . وهو ما لم نجده، عدا صورة واحدة، أوضحت أهمية أملاح البوتاسيوم الموجودة فى التربة فى نمو النبات، ولو أن موضعها اللائق هو فى الفصل الخاص بالنبات.

ومن الإنصاف أن نحمد للمؤلف صنيعه الجليل فى الإتيان ـ أحيانًا ـ بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثنى عشر التى حاول معالجتها فى الفصل، وذلك ليربط بينها وبين الآيات محل المعالجة، وهذا أمر نوه إليه فى خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية، ويأتى أحيانًا أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه، عساها أن تتم ما يريد، أو تجلى الرؤية.

ومن حسناته أيضًا إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة فى شرح النص الواحد. وهذه أمور نبه إليها علماء الدين عند التصدى للحديث عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم، أو إن صح تعبيرنا: التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن.

فى المقالة الثالثة (أو الفصل الثالث) يتناول مؤلفنا موضوع (**السحاب والمطر**)، مقدمًا له ـ كما فعل سابقًا ـ بنبذة علمية تتلوها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع.

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء فى الهواء محددًا طبيعته، حيث يوجد مختلطًا بالهواء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف. هذا البخار شفاف لا يرى. فإذا رأينا ضبابًا فى صباح يوم رطب فهذا الذى نراه ليس ببخار ماء، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء. وعندما يتكثف البخار إلى ماء تتكون قطرات الماء حول دقائق صغيرة من هباءات الغبار المعلقة فى الهواء، وتعتبر هذه الدقائق نويات لقطرات

الماء. ودقائق الغبار هذه توجد فى كل مكان، فهى توجد فوق البحار النائية، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية.

وبعد ذلك تحدث المؤلف عن المصادر الطبيعية لبخار الماء، وتعرض لأهميته، ووصل إلى طريقة تكون السحاب، والفرق بينه وبين الضباب، فالأول فى طبقات عالية من الجو، بينما الأخير يتكون قريبًا من سطح الأرض. وفى معرض حديثه أشار إلى أنواع السحب، وهى: السحب الطباقية، والسحب الركامية، والسحب البيضاء، والسحب الممطرة، معطيًا فكرة سريعة عن كل نوع. ثم انتقل إلى تعريف المطر، وأشار بإيجاز إلى طريقة سقوطه، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله، وتكلم فى تقدير كميته، وتوزيع مناطق غزارته وندرته فى العالم. وفى نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث فى فقرتين اثنتين عن الشحن الكهربى للسحاب ودوره فى حدوث البرق والرعد.

ساق صاحب الكتاب فى هذا الفصل نصوصًا قرآنية تتعلق بالسحب والأمطار، هى على الترتيب: (النور ٤٣، الحجر ٢٢، الواقعة ٦٨ ـ ٧٠، البقرة ١٩ ـ ٢٠، البقرة ١٦٤، الأعراف ٥٧، الروم ٤٨، الرعد ١٢ ـ ١٣، فاطر ٩).

فى النص الأول يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ**﴾ ويوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق إلى حيث يريد الله ـ سبحانه ـ ثم يؤلف بين قطع السحاب حيث تتقارب وتتجاذب نظرًا لاختلاف شحناتها الكهربية، ثم يتراكم فوق بعضه، وهذه الظروف تؤدى إلى حدوث البرق والرعد ونزول المطر.

أما عن الجزئية الخاصة بـ«البَرَد» فى الآية، فقد تكلم عن طريقة تكونه وسقوطه وأنواعه.

فى النص الثانى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾. يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف جاء فيه: سبقت هذه الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى ـ عز وجل ـ أن ما من شىء ينتفع به العباد إلا وعنده خزائنه. فخزائن ملكه مليئة بما يحبه الناس من النعم التى لا حصر لها. وهو لا يحبس ما فى خزائنه عن عباده، ولكنه يعطيهم إياها إذا بحثوا عنها وسعوا إلى كسبها من

وجوهها بحسب السنن التي وضعها، والنظم التي قررها . . . ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ الآية. وَفَسَّر معنى اللواقح، وتحدث عن أسباب حدوث البرق، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربي في السحب والتلقيح النباتي.

في النص الثالث يقول ربنا ـ سبحانه ـ: إنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاجًا، ولإيضاح ذلك استعاد المؤلف كلامًا عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل إلى غاز النيتروجين، وأنه يمثل أربع أخماس التركيب الكيميائي للهواء، وأن الأكسجين يمثل خُمُسه. ومن خواص هذين الغازين أنهما يتحدان عند حدوث الشرارة الكهربية في مخلوطهما ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين، اللذان عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين، وبذا يفسد طعم الماء. فلو أن التفريغ الكهربي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكرارًا كافيًا لنتج عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسيدين سابقي الذكر، ولذاب الحمضان الناتجان عنهما في ماء السحب وحولاه ماء حمضيًا لا يسيغه الناس. وهذا هو موضع المنّ الذي يمنّ به الله على الناس من أنه يكيف التفريغ الكهربي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يؤجج به الماء.

في شرح النص الخامس الذي يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ توسع المؤلف شيئًا ليبين عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأعلى ـ سبحانه وتعالى ـ وهي: خلق الخامات الأولية ووسائل صناعة السفن ـ خلق ظاهرة الطفو ـ خلق خاصية اطمئنان الإنسان لركوب البحر ـ خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم البعض. ثم اتجه لبيان كيف أن إنبات الزرع بالمطر الهاطل من السماء يعتبر إحياء للأرض. وعن «تصريف الرياح» في نفس الآية تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو، ثم عرج على تسخير السحاب، وانتهى إلى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكريمة لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى كونه إلهًا قادرًا واحدًا.

فى النص قبل الأخير الذى يقول فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾، يبين المؤلف أن الله ـ سبحانه ـ ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾، فلما خَوَّف الله ـ تعالى ـ العباد بإنزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هاتين الآيتين، وذكر فيهما أمورًا أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله ـ تعالى ـ وحكمته هى: البرق، السحاب الثقال، الرعد، والصواعق.

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو «**النبات**»، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة كلٍّ من الإنسان والحيوان إلى النبات. وأشار إلى دور النبات فى دورة النيتروجين، ووعد بتفصيل هذه المسألة فى الفصول اللاحقة، ثم شرح دور النبات فى دورة الكربون فى الطبيعة. وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية من مثل الفحم الحجرى وتقطيره.

بعد تلك العجالة العلمية (أو «العملية» كما يحلو للمؤلف مرارًا أن يسميها)، اتجه صوب الآيات القرآنية، فأورد منها النصوص الآتية: المؤمنون ١٨ ـ ٢٠، الحج ٦٣، الأنعام ١٤١، يس ٣٥، ٣٦، الواقعة ٦٣، ٦٧، ق ٧، ١١، النحل ١٠، ١١، طه ٥٣، ٥٤، الرعد ٤، السجدة ٢٧، الشعراء ٧ ـ ٩، الزمر ٢١، الواقعة ٧١ ـ ٧٤، يس ٨٠، البقرة ٦١، عبس ٢٤ ـ ٣٢. ونرى أنه من الملفت لنظر القارئ فى معالجة هذه النصوص أن المؤلف تعرض للأمور التالية: كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب فى إنبات النبات، كيفية تراكب الحب فى سنبله، الفروق بين الزروع والثمار، وحكمة تقديم الأولى على الأخرى، وكيف تكون الثمار متشابهة، وفى الوقت ذاته غير متشابهة، وهذه كلها أمور وردت فى شرح النص الثالث.

أما قول الحق تبارك وتعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له فى كلامه عن النص الرابع.

عند شرح النص الخامس (يس ٣٥ ـ ٣٦) أوضح المؤلف أنه لعل من مقاصد قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أن يأكلوا من ثمر الجنات (الحدائق

والبساتين) مما عملته أيديهم من غرس وزراعة، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكاكر، ونشويات وما إليها.

وفى شرحه للنص الثامن الذى يقول فيه ربنا- تبارك وتعالى ـ أنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ نجد إشارة لطيفة جديرة بالتسجيل هنا، تلك هى أن الله ـ سبحانه ـ بدأ فى هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات، وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان. وفى آية أخرى عكس هذا الترتيب، فبدأ بذكر مأكول الإنسان، ثم بما ترعاه سائر الحيوانات، فقال فى سورة طه (الآية ٥٤): ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾، والترتيب المذكور فى الآية المتقدمة ينبه إلى ضرورة اهتمام الإنسان بما تحت يده من أنعام. كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الإنسان الطاقة من الشجر الأخضر، وهو المنصوص عليه فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠) الذى جاء فى النص الخامس عشر فى هذا الفصل؛ حيث تعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التى يحصل عليها الإنسان من الشجر هى فى الأصل طاقة شمسية، وأشار إلى الفحم المستخرج من باطن الأرض، وهو أشجار طمرت ومرت عليها عصور. وفى النص الأخير (البقرة ٦١) الذى يحكى قصة بنى إسرائيل مع سيدنا موسى فى التيه؛ أعطى مؤلفنا أفكاراً علمية عن نبات الثوم والبصل والعدس وفوائدها الطبية، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير فى هذا الفصل.

وجاء الفصل الخامس من الكتاب الذى نحن بصدده عن «الحيوان»، وفى قسمه الأول عدّد المؤلف فوائد الحيوان، ومنها: الانتفاع من الماشية بـ (اللحم الأحمر، الألبان، الأسباخ)، ومن كلٍّ من الأغنام والماعز (اللحوم، الألبان الصوف، الأشعار الأنواع المختلفة)، ومن الدواجن بـ (اللحم الأبيض، البيض)، ومن الأسماك (البروتين، الدهن)، الانتفاع بكلٍّ من الإسفنج، والشعاب المرجانية، وأصداف الرخويات وغيرها من قواقع البحر، الانتفاع باللآلئ الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤة وأهمية اللآلئ وقيمتها)، انتفاع الإنسان من الحشرات خصوصًا دودة الحرير، ونحل العسل (أسهب المؤلف فى شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للإنسان).

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك إلى النصوص القرآنية التى تتعلق بالموضوع، فيتناول فيها تسعة نصوص هى: (النور ٤٥، النحل ٥، ٨، النحل ٦٦، النحل ٦٨، ٦٩، الأنعام ٣٨، النحل ١٤، العنكبوت ٤١، ٤٤، النحل ٧٩، ٨٠، الرحمن ١٩، ٢٣).

النص الأول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾، ويوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان، وهى دليل من الدلائل على الوحدانية. وقد تقدمها دليلان آخران على وحدانية الله ـ تعالى ـ، أحدهما فى الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها، والآخر فى الآية (٤٣) الخاصة بالسحاب والبَرَد والبرق، وفيهما إشارة إلى أهمية الماء للكائنات الحية، ثم بيان طرائق مشى الحيوانات، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة فى الزواحف. ولاحظ فى هذا النص الكريم قول الله فيه: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، ثم لاحظ قوله ـ تعالى ـ فى النص الثانى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٥ ـ ٨). وهو النص الذى وضح فيه منافع ضرورية للإنسان من الحيوان. وهنا أشار إلى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة انطلاقًا من قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإنها وردت بعد الخيل والبغال والحمير، ومن قبلها ذكرت الأنعام من إبل وبقر وغنم، فهو ـ سبحانه ـ الخالق لكل شىء، ومن خلقه العقول المفكرة والمخترعة.

فى النص الثالث تم إيراد كيفية تكوين اللبن من بين الفرث والدم، وفى الرابع تم شرح النظام العام فى خلايا النحل، وذكرت الأشكال المختلفة لأفرادها. وانتقل بعده إلى شرح كيفية بناء النحل لخليته. ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق وعملية ارتشافه وتحويله إلى عسل، ثم تعرض إلى تركيب العسل.

أما النص السادس وهو الخاص باللحم الطرى والحلية المستخرجة من البحار، فلقد تكلم المؤلف فيه عن **المرجان**، وأعاد كلامه عن **اللؤلؤ**؛ حيث إنه تعرض له بالتفصيل فى صفحات سابقة من نفس الفصل. وفى الفقرة الأولى من شرح النص الثامن فى صفحة ١٥٣ يقول المؤلف: «وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور محور للطيران»، وشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر، ثم فصل الآراء فى دلالة تعبيرات قرآنية مثل

البحرين والبرزخ الواردين فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ (الرحمن: ١٩، ٢٠).

وبعد ذلك نأتى إلى أكبر فصول الكتاب حجمًا وهو السادس فى الترتيب وموضوعه «**الإنسان**»، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الإنسان، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشرى، فتناول الجوانب التالية: تنازع البقاء الحاصل على الأرض، وانقراض الحيوانات التى لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان. آدم وحواء، السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان، العوامل التى أدت إلى وصول الإنسان إلى المستوى الحاضر، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله، بيان بعض قدرات ومواهب الإنسان، ما هو العقل؟ ما هى المدنية؟ هل القوة العاقلة المدركة فى الإنسان يمكن تحسينها؟ أوجه الشبه بين الإنسان والحيوانات المحيطة به، خصائص الجنس البشرى (البيولوجية المدنية)، تحديد موقع الإنسان فى عالم الأحياء من حوله، وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة. جاء خلق الإنسان بعد إجراء أحداث وتغيرات جسام فى كائنات الطبيعة، انقرض على أثرها ما انقرض، وبقى ما استطاع الحياة، ثم خلق الله الإنسان، مذهب الانتشار وأصل مدنية العالم، الكيفية التى بدأ بها الإنسان تعلمه. ومن الجوانب أيضًا: خصائص الباحثين والمكتشفين، معيار نجاح الاكتشاف، علاقة الإنسان بالبيئة والمجتمع فى صياغة شخصيته، وتحديد الشكل الحضارى له، الحجم التعدادى لأصحاب المواهب والعباقرة فى أى مجتمع، موقع اللغة فى موكب المدنية والحضارة، أثر اللغة فى المجتمع، أهمية الكتاب والكلمات فى حياة المجتمعات والناس عمومًا، الجوانب الروحية فى حضارة الإنسان ومدنيته، أنواع الخلق: الخلق الطبيعى ـ الخلق الحيوى ـ خلق النفس البشرية.

ويفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض، نوع مختلف من البشر، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بنى الإنسان) وهو شائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم، إذًا فهناك إنسانان، إنسان قبل آدم وحواء، وإنسان ظهر بمهبط هذين الأبوين، فهل هذا كلام يرضاه العقل والدين، وهل فى الإسلام ما يشير إلى هذه الفكرة!! نعوذ بالله من هذا، وندعو للمؤلف بالمغفرة، كما أننا فى نفس الصفحة نجد

مؤلفنا ـ وهو صاحب خبرة طويلة بالعلم وصاحب همة دينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب ـ قصة خرافية تحكى كيف حصل الفيل على خرطومه؟

عرض المؤلف فى هذا الفصل ستة و ثلاثين نصّا قرآنيّا تتحدث عن أحد عشر جانبًا من الجوانب المتفرقة فى الإنسان، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الإنسان، والنصوص الثلاثة التى تليها متعلقة بتعليم الإنسان وتعلمه، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسئولية الإنسان عن أعماله ومحاسبته عليها، والنصان السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الإنسان خلق ضعيفًا، والنصان التاليان لهما بينا غفلة الإنسان عن المنعم ـ سبحانه ـ وكذا ظلم الإنسان لنفسه. أما النصوص الأربعة (من العشرين إلى الثالث والعشرين) فتتعلق بتناسل الإنسان وبيان أنه سنة لتعمير الأرض، والنصوص الثلاثة التى تليها تحدد علاقة الإنسان بوالديه. النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية. ثم تقررت حقيقة الموت فى النصوص القرآنية الثلاثة التالية، وأتبعها المؤلف بنصين يؤكدان حقيقة البعث، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة.

فيما يتعلق بخلق الإنسان، فإن الله ـ سبحانه ـ قد أبان عن أمور عديدة من هذا الموضوع نجدها فى نصوص قرآنية، منها ما أورده المؤلف: (ص ٧١ ـ ٧٤، الحجر ٢٦ ـ ٣١، البقرة، ٣٠ ـ ٣٤، الطارق ٥ ـ ٨، الشورى ٤٩، ٥٠، الحج ٥، المؤمنون ١٢ ـ ١٦، الزمر ٦، والتين ١ ـ ٤).

فى معالجة هذه النصوص، تعرض المؤلف لعديد من الأمور الخطيرة، وهل أخطر من خلق الإنسان، ومن قبله خلق السماوات والأرضين؟! بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الإنسان) فكانت جوانب حديثه كما يلى: المادة الحية، الأولى (البروتوبلازم)، البناء النسيجى لجسم الإنسان، الخلية: الوحدة البنائية لجسم الإنسان، الأعمال الوظائفية للخلية الحية، أهمية الغذاء لحياة الخلية، التركيب الكيميائى لمحتوى الخلية، عناصر الجسم الأولية، عناصر تركيب التربة، ومن هنا خلص المؤلف إلى النتيجة الأزلية وهى أن الإنسان الأول، أى آدم عليه السلام، وكذا سائر البشر مخلوقون مما يتكون منه الطين. إذ إن العناصر التى يتكون منها الإنسان هى ذات العناصر التى يتكون منها؟.

ولما كان الطين جماداً لا حياة فيه، والإنسان كائنًا حيًا له كل مظاهر الحياة، وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الإلهية دون التفكير فى كيفية الخلق؛ إذ إنه حدث بطريقة غيبية فوق إدراكنا.

وهذه الغيبية استأثر بعلمها الله وحده، حيث يقول ـ عز من قائل ـ: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ....﴾ (الكهف: ٥١). ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو: هل خلق الإنسان حقًا من صلصال أو صلصال كالفخار، أو حمأ مسنون أو طين.

وفى إجابته عن هذا السؤال، يقول المؤلف فى ص ١٨١: «.. وليس من الواجب ـ بعد ما أوضحناه ـ أن نأخذ بحرفية الآيات، وأن نفهمها على ظاهرها، وأن نتصور أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الإنسان من طين، ثم جعله صلصالاً وشكل منه الإنسان، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان، ومثال يفهمه الناس بطريق الحس والخيال. وهنا نسأل: كيف يخول المؤلف لنفسه أن ينتهى إلى هذه النتيجة، وهو الذى أخذ يشرح عناصر الإنسان، وعناصر التربة بغية الوصول إلى أن أصل كليهما واحد، يعنى أن الإنسان خلق من طين؟!

ثم تكلم المؤلف فى هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (الحجر: ٢٩) أى أن التسوية أولاً، ثم النفخ فى آدم، ثم الأمر بسجود الملائكة. وهذا السجود ليس عبادة، وإنما احترام وتوقير. ثم عند تعرضه للآيات ٥ ـ ٨ من سورة الطارق ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨﴾، أخذ يوضح المؤلف الصُّلب والترائب، ويشرح عملية الإخصاب فى الإنسان، ورسمها فى شكل إيضاحى، ثم فى النص التالى له؛ أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورًا وإناثًا.

وفى النص السابع يشرح كيف أن الرحم فى الأنثى قرار مكين، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة فى رحم الأنثى حول الجنين. أما النص الأخير والذى ذكر التين والزيتون.. فإنه شرح خواص هذه النباتات، على الرغم من أن الموضع هنا ليس موضعها!!

فى الجزئية الخاصة بمسئولية الإنسان عن أعماله ومجازاته عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ (الإنسان: ١) ويوضح أن حياة الإنسان على الأرض لا تحتل إلا جزءاً يسيراً جداً إذا قيس بعمر الأرض، وحتى يبين ذلك تكلم فى المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضى. وعندما وصل إلى بيان غفلة الإنسان عن المنعم الأعلى، وأن من صفات الإنسان الظلم، وأول من يقع عليه الظلم هى نفسه التى بين جنبيه، و يشرح المؤلف معنى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ (إبراهيم: ٣٤) بعرض مثالين: **المثال الأول**: تركيب الإنسان نفسه، فهو مكون من أجهزة، ولكل جهاز وظيفته، ثم **المثال الثانى**: اللقمة التى يتناولها الإنسان فى فمه، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض، ثم تناولها، ثم هضمها والانتفاع بها فى جسده.

وفى صفحة ٢٥٢ تحدث عن النفس المطمئنة، وصفاتها الأربع، ثم فى الصفحة التى تليها تحدث عن النفس الإنسانية كما عرّفها علماء النفس. وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التى تتحدث عن هذه الحقيقة، ثم أوضح أن الموت نوعان: الموت العادى، والموت العلمى، وهو لا يكون بتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط، لكن يكون بموت جذع المخ.

واختتم الكتاب بفصل عن «**السماء**» يستهله المؤلف بنبذة عن السماء فيقول: نفتتح هذه النبذة بإلقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معانى السماء التى جاءتنا فى نصوص الكتاب الكريم؛ لعل فى عرضها ما يزيدنا بصيرة بالقرآن، ويجيب على ما يتردد فى أذهان كثير من الناس: ما هى السماء؟ وعند الإجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معان للسماء:

١ ـ جاءت السماء بمعنى ما يعلو الإنسان: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ (البقرة: ١٤٤). وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود فى طبقات الجو.

٢ ـ جاءت بمعنى السحاب: ﴿**وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ**﴾ (البقرة: ٢٢). وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار.

٣ ـ وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التى تعلو الأرض وتلامسها عند الأفق. وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية، وبين سبب زرقة السماء، فقال: والجو هو السبب فى زرقة السماء، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الأرض تقابله جزيئات الغازات المكونة للجو، وكذا دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه، وهذه تحدث «تشتتًا» فى الضوء لا يكون واحدًا للأطوال الموجية المختلفة. فالجزيئات والدقائق تشتت الضوء الأزرق (أى الأطوال الموجية القصيرة) بدرجة أكبر مما تتشتت بها الأضواء الأخرى الأطول موجية كالأحمر وغيره. وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر، فسماؤنا ترى زرقاء؛ إذ إن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت.

٤ ـ كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع: ﴿**وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ**﴾ (الأنبياء: ٣٢)، ﴿**وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ**﴾ (الطور: ١ ـ ٥).

بعده أخذ مؤلفنا فى تفصيل القول عن الأجرام السماوية، وقسمها إلى ثلاث فئات:

الأولى: الكواكب، الثانية: النجوم، الثالثة: المجرات. فى الفئة الأولى (الكواكب) ذكر أن الأقدمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجوالات)، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس، وأسماؤها مرتبة حسب ترتيب بُعْدها عن الشمس كالآتى: عطارد ـ الزهرة ـ الأرض ـ المريخ ـ المشترى ـ زحل ـ أورانوس ـ نبتون ـ بلوتو.

هذه الكواكب السيارة هى أقرب الجيران لنا فى هذا الفضاء الكونى. ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة فى أفلاك حول الشمس، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط. ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أمها الشمس إلى «كواكب داخلية»، و«كواكب خارجية»، وبيّن النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس.

الفئة الثانية: من الأجرام السماوية هى (**النجوم**): يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزاته الأكثر صعوبة فى تعيينها ليس هذا فحسب، ولكنه أيضًا من أكثرها أهمية، فكل التغيرات التى تتناول النجم أثناء حياته يمكن تعيينها من معرفة كمية ونوع الطاقة التى

يشعها، ولكن كمية الطاقة التى يشعها نجم فى الفضاء لا يمكن معرفتها إلا إذا عرف بعده. ثم تكلم فى الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها، وأن الوحدة لقياسها هى السنة الضوئية، وأعطى تعريفًا لهذه الوحدة وأمثلة لبيانها. وذكر أن «هالى» (والذى يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين فى سنة ١٧١٨م أن النجوم ليست ثابتة فى مواضعها، فقد لاحظ أن «**الشعرى اليمانية**». وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهرى للقمر وهو بدر عن المواضع التى عينت لها كتالوج بطليموس القديم. واسترسل المؤلف فى شرح الحركات، ثم انتقل إلى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها، وساق أرقامًا مذهلة. وذكر خاصيتين مهمتين أخريين هى الحرارة والإضاءة، فقال: درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المسافات من سطح النجم، فإذا وجد نجمان متساويان فى الحجم فأكثرهما سخونة يشع كمية طاقة أكثر، وإذا وجد نجمان متساويان فى درجة الحرارة فأكبرهما يشع طاقة أكثر؛ ولذا «**فإضاءة» النجم (سطوعه الذاتى)** تتوقف على عاملين: درجة حرارته وحجمه. وفى تفصيل هذه الجزئية تعرّض المؤلف لمقاييس الإضاءة، ومنحنى H-R لبيان الارتباط بين درجة حرارة النجم وإضاءته.

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية **(المجرات)**: وهى تظهر فى كل جزء من السماء، فيما عدا امتداد (الطريق اللبنى)، حيث يخفى الغبار والغاز فى مجرتنا بقية المجرات الأخرى خلفها.

وترى فى الكون مئات الملايين من المجرات، ومنها ما نستطيع رؤيته بأضخم تليسكوباتنا، ومنها ما لا تجدى التلسكوبات الضخمة فى الكشف عنها... وقد قام إيدوين هويل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هى: **البيضاوية، والحلزونية، وغير المنتظمة**. وبعد أن جال وصال فى هذا الميدان انتهى إلى: مما تقدم نستطيع أن نقسم المادة فى الفضاء النجومى إلى ثلاث مجموعات رئيسة: السدم، المجرات، التجمعات المجرية المحلية، وكانت آخر جزئية فى هذا القسم من الفصل هى شرح فكرة أن الفضاء محدود، ولكن لا حدود له نظرًا لأبعاده الشاسعة.

انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الآيات القرآنية عن السماء التى تبين بديع صنع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى خلقها وعظيم قدرته وإحكامه فى تدبير أمرها، وأورد ١٣ نصًا

هى على التوالى: (فصلت ١١ ـ ١٢، النازعات ٢٧ ـ ٣٤، ق ٦ ـ ١١، الرعد ٣، الواقعة ٧٥، ٧٦، نوح ١٣ ـ ١٦، الذاريات ٤٧، يس ٣٨، يس ٣٩، ٤٠، الفرقان ٦١، ٦٢، الجن ٨، الأنبياء ٣٠، الملك ٣ ـ ٥).

فى شرح قول الله ـ تعالى ـ فى الآيتين ١١ ـ ١٢ من سور الدخان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، يوضح المؤلف أنواع السدم، ويذكر أن منها المضيئة والأخرى المظلمة، وهو ما سبق أن أوضحه فى القسم الأول من هذا الفصل، وفى تصويره لميلاد نجم من النجوم يقول: : الغاز والغبار يشكلان المادة الأولية التى تتكون منها النجوم، وهو الذى سماه المولى ـ عز وجل ـ «دخان»، ومما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت تكون النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن. . . والمولى ـ جل شأنه ـ وضع من السنن الكونية ما يتم معها تخليق النجوم من الدخان، كأن تنزع كتلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذى يكون السديم ـ مثلاً بأن تقوم بحركة دوامية ثم تبدأ فى عملية تقلص، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها اسم النجم الابتدائى؛ لأنه ليس ساخنًا بدرجة كافية حتى يشع ضوءًا مرئيًا، ولكن باستمرار تقلص الغاز فيه تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب إلى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة، وعندما تبلغ هذه الدرجة فى مركزه حوالى ٥٠٠,٠٠٠ درجة مطلقة يتحول النجم الابتدائى إلى (نجم يافع) يمكن تعيين موضعه على المنحنى H-R وفق إضاءته ودرجة حرارته.

وفى قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: ٢٧ ـ ٣٣). يوضح المؤلف أن الله ـ سبحانه ـ بعد أن قرر أنه بنى السماء، شرح لنا كيفية البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، فإذا كان رفع السماء هو أول صفات بنائها، فإن الصفة الثانية هى ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أى: جعلها خالية من العيوب، والصفة الثالثة هى ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾. . . وإنما أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ثم غروبها وطلوعها، وهاتان العمليتان الظاهريتان تحصلان نتيجة

لدوران الأرض حول محورها. وأخذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض فى هذه الآيات الكريمة.

فى سورة ق (الآيات ٦ ـ ٨) يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ ومن الملاحظ فى هذه الآيات أن الله ـ تبارك وتعالى ـ ذكر فى الأرض ثلاثة أمور، كما ذكر فى السماء ثلاثة أمور.

وفى قول الله ـ تعالى ـ فى سورة الرعد (آية: ٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمد هى قوى الجاذبية التى تتجاذب بها النجوم والكواكب، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هى قوة الطرد المركزية، وبتعادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوى الاحتفاظ بموقعه، وعدم الانفلات منه.

وعند وصوله إلى النص السابع فى هذا الفصل، نجد المؤلف يوضح قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، فيقول: دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تتهادى فى مجموعات يطلق على كلٍّ منها اسم «التجمع المجرى». وكل تجمع من المجرات هو مجموعة مقيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها... وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التى تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ويحل بدلاً منه تنافر؛ إذ إن جموع المجرات يبدو أن كلاً منها يتجنب الآخر. وقد دلت التجربة على أن الجموع المجرية تبتعد عنا، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا. والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون آخذ فى الاتساع.

وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس: ٣٨)، وقوله: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠)، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ (الفرقان: ٦١)

وتساءل المؤلف ما هى البروج؟ وما أحوالها؟ وما أنواعها؟ وما أسماؤها؟ وما علاقتها بالشمس وحركاتها؟ ثم عرض لمعنى قول الله ـ تعالى ـ ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ (الجن: ٨)، فأخذ يشرح الشهب والنيازك، ويعطى أمثلة على ما ذهب إليه. أما بيانه المقتضب فى معنى قول الله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، جاء خلاصته ما أوضحه فى أول هذا الكتاب.

* * *